



منيرة المهدية

سلطانة الطرب

- في عوامتها تشكلت الوزارات وفي بيتها تجتمع
- كانت فاتحة خير لفرقة عزيز عيد. وانفصلت عنه لتفتح مقهاها.
- هل تأمر عليها عبد الوهاب وأم كلثوم؟
- عشقها الصحافي عبد المجيد حلمي ومات فأخذها إلى قبر النسيان.
- الملك فؤاد، كيف يجزؤ رئيس مجلس الشيوخ على تقبيل يد مطربة.

لمع فى سماء الفن مطلع القرن العشرين نجوم كثيرون لا يزالون يتمتعون بالشهرة حتى اليوم، ومنهم الشيخ سلامة حجازى، ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم وسيد درويش وغيرهم. وكانت بينهم نجمة ساطعة لا يعرفها أو يسمع عنها الآن، سوى القلة.

كان اسم تلك النجمة منيرة المهديّة.

عُرفت منيرة المهديّة كشخصية تاريخية فى عالم الفن الغنائى العربى، مطلع القرن العشرين، ولقبت «سلطانة الطرب» وارتبطت بالعديد من الشخصيات الفنية وغير الفنية، مما كان له أكبر الأثر فى رحلتها فى عالم الفن والمسرح. والغريب أن ارتباط منيرة المهديّة بشخصيات بعينها فى مجال الفن، بل ومساعدتها لهم كان السبيل الحقيقى نحو القضاء عليها، والتخلص منها، وكان العكس، صحيحاً فى مجال السياسة، حيث كانت الشخصيات السياسية التى عرفتها، بمثابة الدرع الواقية فى كثير من الحالات. وقد اتسمت منيرة بالغرور الشديد، الذى قيل إنه جعلها تتصور أنها بما كانت تملكه من إمكانيات فنية غير مسبوقه، تستطيع أن تقضى على الأسماء المهمة فى عالم الفن، حتى ولو كانت أم كلثوم شخصياً.

وكانت منيرة المهديّة تتمتع بأدوات تتيح لها مثل هذا التفكير. فهى أول فنانة مصرية، وربما عالمية، يعقد فى دارها اجتماع مجلس الوزراء المصرى. وكانت عوامتها على النيل المكان «الأمين» الذى يتم فيه تشكيل هذه الوزارات.

ويقال إن كلاً من محمد عبد الوهاب وأم كلثوم، ولو وبشكل غير مباشر، تحالفا على إسقاط منيرة المهديّة والقضاء على عرش «السلطانة» فى عالم الغناء والطرب والمسرح، بل والحياة أيضاً.

بدايات مبهمة

أغفلت منيرة المهديّة جوانب كثيرة من حياتها، سواء أكان في ما ذكرته من كلمات زُيّنت بها المجلات والصحف الفنية مع مطلع عام ١٩٢٧، أم في بعض مذكراتها. لكن العديد من المؤرخين اهتموا بحياتها وقدموا عنها الكثير.

«زكية حسن» هو الاسم الأصلي لمنيرة المهديّة. واشتهرت وهي طفلة صغيرة بحلاوة الصوت وعُدوبته، حيث كانت تغنى في القرى والمدن المحيطة بمركز ههيا في محافظة الشرقية، في منطقة المطرب الراحل عبد الحليم حافظ. وذاع صيتها في الزقازيق عاصمة المحافظة.

ويقول المؤرخون إنه زار الزقازيق يوماً أحد أصحاب الملاهي في القاهرة ويدعى محمد فرج، واكتشف قوة وجمال صوت «منيرة»، وتمكّن من إقناعها وإغرائها بالسفر معه إلى القاهرة، حيث الأضواء والشهرة. لكن ما جاء في بعض الصحف والمجلات الصادرة عام ١٩٢٧، وخاصة مجلة المسرح، يقول عن سلطانه الطرب: «ومنيرة التي يعرفها جميع الناس في مصر، بل وفي كثير من بلاد الشرق، والتي تحيا حياة ترف وبذخ لا يتمتع بمثلها كثير من الأثرياء والوجهاء، والتي لم يقتصر الإعجاب بها على العامة، بل إن كثيراً من العظماء ورجالات مصر أولوها من عطفهم وتقديرهم ما لم تحظ به غيرها. . منيرة التي بلغت هذا الشأن، هي صبية ريفية معدمة، وُلدت في أحد بلاد مديرية الشرقية، وكانت نحيلة الجسم ضعيفة التكوين، أميل في شكلها إلى فتيات الأعراب. وصادف أن اكتشفها واكتشف حلاوة صوتها أحد أفراد الأسرة الأباطية، وكان يعطف عليها ويرعاها ويوجهها إلى مواهبها الكامنة فيها، وانتشر خبرها، ثم وجدت من يشجعها وحبب إليها احتراف الغناء».

ورغم هذه التأكيدات إلا أن منيرة نفسها، نسبت ميلادها إلى مدينة الإسكندرية عام ١٨٩٨م، وأضافت أنها عاشت طفولتها كلها هناك، حتى

اكتشفت موهبتها الفنية فرحلت إلى القاهرة، على الرغم من ارتباطها بالفنان محمود جبر أول أزواجها، والذي أدار أعمالها الفنية في الفترة من ١٩٠٥ وحتى عام ١٩٢١، عندما كانت تعمل في مقهى في الأزبكية، وعملت في مقهى محمد فرج قرابة خمس سنوات تغنى وترقص لرواده. ثم استقلت منيرة المهديّة أو زكية حسن بنفسها، عندما افتتحت لها مقهى فنياً في الأزبكية أيضاً يحمل اسم «نزهة النفوس». وقد لعبت «سيدة اللاونديّة»، حسب تعبير الموزخ الموسيقي فكري بطرس، دوراً كبيراً في حياة منيرة المهديّة فنياً، حيث لقتها عدة أدوار غنائية مشهورة ظلّت ترددها كثيراً على مسامع المترددين على مقهى محمد فرج أو مقهى نزهة النفوس، وكان من أشهرها.. «أسمر ملك روحى»، و«ياحبيبي تعالى بالعجل» و«ولازم أمهته دا العصفور...».

مع سلامة حجازى

اختارها الشيخ سلامة حجازى سنة ١٩١٤ للغناء فى مسرحه، بين فصول رواياته، بعدما أثبتت نجاحاً غير مسبوق فى هذه المهمة مع العديد من الفرق المسرحية، التى كانت منتشرة فى القاهرة آنذاك. وعلى أثر نشوب الحرب العالمية الأولى، زادت نجومية السلطانة منيرة المهديّة، خاصة عندما أحببت المسرح واتجهت للعمل فيه. وكان لها قصب السبق أن تكون أول مصرية تدخل فى ميدان المسرح الغنائى والتمثيلى. وأصدرت السلطات البريطانية، التى كانت تحتل مصر وتضعها تحت الحماية، أوامرها العسكرية سنة ١٩١٤، بأن يتم إغلاق الحانات والمقاهى الخاصة بالغناء والرقص، بدءاً من الساعة العاشرة مساءً. وكان من بين هذه الأماكن «مقهى نزهة النفوس» لمنيرة المهديّة.

وعلى الرغم من قسوة هذا القرار على أصحاب المقاهى عموماً، وهى منهم، فقد كان فى الوقت ذاته بداية مرحلة جديدة فى حياة منيرة المهديّة، إذ انتقلت بالفعل إلى طور جديد من أطوار حياتها الفنية. وكانت من قبل ترفض القيام بهذه الخطوة، رغم العروض الكثيرة التى انهالت عليها إثر نجاحها مع الشيخ

سلامة حجازى، ولما أصدرت السلطات البريطانية هذه الأوامر جاءت الفرصة مرة أخرى للفنان الراحل عزيز عيد، الذى أعاد على مسامح منيرة ضرورة دخول عالم المسرح الغنائى، وقبلت اقتراحه واستأجرت «دار التمثيل العربى»، ثم قامت بأدوار الشيخ سلامة حجازى الغنائية، فنجحت نجاحًا غير مسبوق، مما دفعها إلى المزيد، حتى تمكنت من تكوين فرقة مسرحية باسمها، وهى فرقة منيرة المهديّة، التى قدمت من خلالها العديد من المسرحيات الغنائية.

أوبرا

يقول الدكتور سامى عبد الحميد، أحد المهتمين بتاريخ المسرح المصرى، إن خلافًا نشب سنة ١٩١٦ بين فرح أنطوان وجورج أبيض، بعد أن قدما معًا العديد من المسرحيات المترجمة و«المصرة». وقد وجد أنطوان أنه يمكنه بالتعاون مع فرقه منيرة المهديّة، إحياء فن من الفنون، الذى ليس له مثيل فى المسرح العربى كله، وهو فن الأوبرا. وقد التقى طموح فرح أنطوان مع طموح كل من منيرة المهديّة ومدير أعمالها الفنية عبد العزيز خليل. وكانت بداية هذا التعاون، ذلك المشروع الذى قُدّم عام ١٩١٧ ونتج عنه إنتاج «كارمن» من تلحين جورج بيزيه، وكامل الخلقى. وأثمر هذا المشروع أيضًا، إخراج عدة مسرحيات غنائية تركت آثارها واضحة فى تاريخ المسرح الغنائى المصرى.

يقول المؤرخ الفنى فؤاد رشيد إن المخرج عزيز عيد أعلن فى صيف عام ١٩١٥، عن ظهور أول ممثلة مصرية، «فظهرت علامات التعجب والاستفهام على وجوه الجميع، وتساءلوا من تكون هذه الممثلة، حيث كان الإعلان خاليًا من أى أسم. وبعد بضعة أيام ظهرت الإعلانات، وفيها اسم منيرة المهديّة كأول ممثلة مصرية. وأكتظ المكان بالمشاهدين الذين جاءوا لمعرفة من تكون هذه الممثلة. وانتهى الفصل الأول من الرواية ولم تظهر هذه الممثلة، ثم أسدل الستار، وظهر عزيز عيد على المسرح ليعلن عن أول ممثلة فى المسرح المصرى، فظهرت فتاة جميلة رشيقة القوام، عرفها المشاهدون مطربة راقصة فى مقاهى ذلك العهد.

وغنت منيرة المهديّة إحدى قصائد الشيخ سلامة حجازي «إن كنت في الجيش». وظلت منيرة تظهر كل ليلة لتلقى إحدى قصائد سلامة حجازي، ويكتظ المكان بالجمهور حتى آخر مقعد فيه، ودخلت النقود بذلك جيوب الممثلين وانتعش حال الفرقة، لكن منيرة سرعان ما فهمت أن هذا الجمهور يأتي من أجلها فقط، ورأت أن هذه النقود من حقها وحدها، فانسحبت لتكوّن فرقة مسرحية خاصة بها. وما أن غابت منيرة عن مسرح عزيز عيد، حتى انفضّ الجمهور، واضطر الرجل إلى إنهاء عمل هذه الفرقة بسبب صوت منيرة المهديّة، التي نجحت نجاحًا كبيرًا في مجال المسرح الغنائي».

مع عبد الوهاب

«لو أطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع». هذا القول الحكيم ينطبق بالفعل على ما جرى لمنيرة المهديّة، بعد أن ذاع صيتها وقررت أن تعمل في المسرح وحدها، وذلك لأنها تعرفت في ذلك الوقت المبكر من حياتها المسرحية على «صبي» فنان ثانٍ مازال يجبو في شارع الفن متنقلاً بين الأزيكية وعماد الدين وهو الفنان الصغير محمد عبد الوهاب. الذي شاركها في بعض الأعمال المسرحية ممثلاً ثم مطرباً بين فصول مسرحياتها، ثم ملحنًا بالصدفة، لأحد أعمالها الفنية المشهورة، وهو أوبريت «كليوباترا». وكان من المقرر أن يلحنه الموسيقار العظيم سيد درويش، ولكن عاجلته المنية. ولم تجد منيرة المهديّة أمامها، وبواسطة وتدخل أمير الشعراء أحمد شوقي، سوى محمد عبد الوهاب ليقدّم هذه الألحان. وبعد نجاحه الباهر مطرباً وملحنًا اختلف مع الست منيرة، بل وبدأ يخطط فعلاً للقضاء على عرشها الغنائي. وعبد الوهاب نفسه يعترف بذلك في أوراق مذكراته: «كانت منيرة قد اختلفت مع المرحوم سيد درويش وهو يلحن أوبرا كليوباترا لحسابها. فانقطع عن تكملة اللحن».

(يلاحظ الاختلاف في الرواية، حيث أكد العديد من المؤرخين أن السبب هو وفاة سيد درويش). وفي ذات يوم قابلتني منيرة، وطلبت مني استكمال ألحان كليوباترا وتمثيل دور أنطونيو، فأجبتها على الفور: أعوذ بالله، وعادت منيرة تلح

فى هذا العرض فلم أجد بدا من أن أعدةا بالتفكير فى هذا الأمر بعد بضعة أيام، ولم يكن ترددى فى قبول هذه الفرصة، هو عزوفى عن المجد، الذى قد يهينه لى ظهورى كمطرب وممثل أمام سيدة عظيمة كمنيرة المهديّة، وإنما كان خوفى وتهيبى من الفشل، الذى توقعتة، لشهرتها الخفاقة وصوتها الذى يجذب الجماهير. واستشرت شوقى (يقصد أمير الشعراء شوقى). فنصحتى بالقبول. وكانت فكرتى فى هذا الأمر أننى لو فشلت فسيكون عزائى أننى فشلت أمام أعظم مطربة. وإذا نجحت فسيكون نجاحى مضاعفاً لهذا السبب».

ويضيف قائلاً: قلت فيما سبق إن نجاحى مع منيرة والإقبال الشديد الذى لقيته من الجمهور جعلانى أحس بالزهو. ولم أكن أقدر سوى الفشل، ولذلك لم أدخل مع الست منيرة فى اتفاق تفصيلى على الأجر الذى سأقتاضاه. ولكن بعد ذلك، جاءت اللحظة التى كان لابد فيها من تسوية الحساب والاتفاق على الأجر المنتظم لى. عندئذ طالبت بأن يكون أجرى عشرة جنيهات فى الليلة الواحدة، وعارضت ذلك السيدة منيرة، رغم أن الإيرادات كانت ذات أرقام يتواضع أمامها هذا الأجر الذى طلبته. وأصررت على ألا يزيد أجرى على ستة جنيهات. وحاول بعض الأصدقاء تسوية هذا الخلاف، ولكن كلاً منا أصرّ على موقفه، فتركت الفرقه».

مؤامرة

وإذا كان هذا هو رأى محمد عبد الوهاب، الذى انسحب من العمل مع منيرة المهديّة، مما سبّب لها مشكلات كثيرة، كانت تنذر بضياع مجدها الفنى، فإن للمؤرخين وجهة نظر أخرى. وكلها تتهم محمد عبد الوهاب بالتآمر ضد السلطنة. فقد كتب المؤرخ عبد الحميد توفيق فى أكثر من مناسبة: «فى أواخر عام ١٩٢٦، قدمت فرقة منيرة المهديّة رواية «كليوباترا ومارك أنطونيو»، التى كان قد بدأ تلحينها الشيخ سيد درويش، ثم أكمله محمد عبد الوهاب، بتوجيه من أمير الشعراء أحمد شوقى، الذى توسط لدى منيرة المهديّة لكى يقوم عبد الوهاب بهذا العمل. ولكن اتضح أن هذه الألحان جاءت مناسبة فنياً لصوت عبد الوهاب

وغير مناسبة لصوت منيرة، مما أدى إلى أفول نجمها الفنى فى مجال المسرح الغنائى».

خلاف مع الصحافيين

يُورد المؤرخون الكثير من الأحاديث عن دور أم كلثوم فى القضاء على منيرة المهديّة، ويقولون إنها كانت تمثل خطراً كبيراً على أم كلثوم، التى كانت عند بدايات الشهرة فى الأعوام ١٩٢٧ وحتى ١٩٣٠م. وقد ساند أم كلثوم فى هذه المعركة العديد من الصحافيين والمجلات الفنية المشهورة آنذاك، حيث اتضح أن منيرة المهديّة كانت على خلاف كبير مع الصحافيين ونقاد الفن. وقد اتهمت بأنها السبب فى مقتل الصحافى عبد المجيد حلمى صاحب مجلة «المسرح» الذى وقع فى غرامها ورفضت أن تتزوجه. فأصابه مرض الحب ومات متأثراً به. وفى الوقت ذاته، نجحت أم كلثوم فى كسب تأييد الصحافيين وإقامة علاقات من نوع خاص مع أغلبهم وقد فتحوا لها صفحات مجلاتهم وصحفهم. التى أغلقوها فى وجه منيرة المهديّة. ويقول الكاتب والصحافى مصطفى أمين: «لم يمت الصحافى عبد المجيد حلمى وحده، بل أخذ معه منيرة المهديّة إلى القبر، إلى قبر النسيان، حيث قام النقاد والصحافيون يهاجمونها ويتهمونها بأنها هى التى قتلت عبد المجيد حلمى».

ونشأت بذلك علاقات متباينة، بين كل من منيرة المهديّة وأم كلثوم والصحافة، التى أسهمت فى أفول نجم الأولى وصعود نجم الثانية. ويُقال إن منيرة المهديّة كانت هى البادئة بحرب الصحف ضد أم كلثوم، عندما أوجت إلى صديقها الخاص جداً عبد المجيد حلمى قبل أن تغدر به، بشن أكثر من حملة، ضد الفنانة «الفلاحة» أم كلثوم، حتى وصل به الحال إلى أن اتهمها فى شرفها.

السياسة والسياسة

وكان لسُلطانة الطرب علامات قوية برجال السياسة، حيث كانت «منيرة المهديّة» تدعو الوزراء ورؤساء الوزراء ليعقدوا فى عوامتها الشهيرة، المظلة على جسر «إمبابة» على نهر النيل فى القاهرة فى اتجاه الزمالك، جلسات مجلس

الوزراء، كانت فى حياة منيرة المهديّة علاقات خاصّة، تقترب من حافة الأسرار، سواء أكانت فى حياتها العامّة أم الخاصّة وهى التى تقول: «إنّ من أخصّ أصدقائى وعشّاق صوتى وفنى، كل من حسين رشدى باشا وعبد الخالق ثروت باشا»، وذكر الزعيم الوطنى سعد زغلول بعض صداقات منيرة المهديّة فى مذكراته، ويصف ذلك أحد المؤرخين بقوله: «كنت أقرأ مذكرات سعد زغلول عن سنوات الحرب العالميّة الأولى، وفوجئت عندما وجدت فيها اسم المطربة منيرة المهديّة. وكان سعد يصف ليلة أمضاها فى الأوبرا ومعه عبد الخالق ثروت باشا، وإسماعيل صدقى باشا. وقال: إنه فهم من حديث الوزيرين أنّهما يترددان على فنانة اسمها منيرة المهديّة». بل إن علاقات منيرة المهديّة سلطنة الطرب مع رجال السياسة كانت محل تقدير واهتمام الصحف الصادرة آنذاك. ومن أهم ما نشرته هذه الصحف أن علاقاتها مع حسين رشدى باشا، رئيس مجلس الشيوخ آنذاك كادت تفسد علاقته بالملك فؤاد.

وتقول التفاصيل: «حدث أن كانت منيرة مدعوة فى حفل خاص، فكانت تلبس ملابس كليوباترا، وجاء صاحب الدولة حسين رشدى باشا، رئيس مجلس الشيوخ، وقبّل يد منيرة المهديّة. ووصل ذلك إلى الملك فؤاد، الذى ثار متسائلاً: «كيف يجرؤ رئيس مجلس الشيوخ على أن يقبّل علناً يد مطربة؟» واستدعى الملك فؤاد، عبد الخالق ثروت باشا، وطلب منه إبلاغ غضبه السامى على رئيس مجلس الشيوخ، إلّا أن ثروت باشا طلب من الملك أن يقوم بذلك بنفسه، فأرسل فى استدعاء حسين رشدى باشا وتحدث معه بعنف. فرد عليه بهدوء قائلاً: «ليس فى الدستور المصرى مادة تمنع رئيس مجلس الشيوخ من أن يقبّل يد مطربة ضمعوا هذه المادة فى الدستور، وأنا أعدكم بأننى لن أقبّل أيدى المطربات أو الممثلات». وظل حسين رشدى على علاقة قوية بمنيرة المهديّة حتى بعد توليه رئاسة وزراء مصر. وكان كثيراً ما يحلوه له عقد مجلس الوزراء فى عوامتها على النيل. وكثيراً ما كان يختار وزيراً ويخلع آخر فى العوامة ذاتها، تحت سمع وبصر منيرة المهديّة.

وتوفيت منيرة المهديّة فى شهر مارس عام ١٩٦٥.